https://www.raya.com/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/e9ce8ba7-9943-4b0b-b206-42a874ea24b8

مِن تُراثِ المَحَبّة عِندَ العَرَبِ

جريدة الراية القطريّة، يوم السبت 1441/5/9 هـ - الموافق 2020/1/4 م.

. اِخْتُلِفَ في كِتْمانِ المَحَبّة فَقِيل يَصِحُّ كِتْمانُها وقيل لا.

. مِن أبوابِ الكتابِ: في الحَذَرِ مِن إطلاقِ النَّظر وما قيل مِن العِتابِ بَين القَلْبِ والبَصَرِ.

جهاد فاضل

«**مُنيةُ المُحِبّين وبُغْيَةُ العاشِقين**»، كتابٌ مِن تُراثِ العِشقِ عندَ العَرَبِ صادر حَديثاً عن «المؤسّسة العربيّة للدراساتِ والنشر» في بيروت وعمّان بِتَحقيقِ الباحثةِ **الدكتورة بسمة الدجاني الأستاذة** في مركز اللغات بالجامعةِ الأردنيّة في عَمّان.

المؤلّفُ هو مَرعي بن يوسف بن يَحيى بن مَرعي الحَنبلي الكرمي المُتَوَفَّى عام 1033هـ، أي في القرنِ السادس عشر الميلادي.

والكتابُ الذي وَضَعَهُ في العِشْقِ شَبيهٌ بِكُتُبٍ كَثيرةٍ مِن نَوْعِهِ في تُراثِنا العَربيّ القَديمِ مِثل كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي، وكتب كثيرة للأنطاكي وسواه. إن قضية الحب والعشق أمر عام بالمُطلق، كما تقول الباحثة، وهو متعلق بالمجتمعات كلها دون استثناء. وقد استجاب عدد من الكتّاب والمؤلفين في القديم والحديث لحاجات مُجتمعاتهم، ووضعوا مُصنّفات يمكن أن نسميها مؤلفات مُجتمعية ضمّنوها مُداخلات

دينية وأدبية ومنطقية حول الموضوع مدار البحث. والكرمي، مؤلف الكتاب، واحد من أولئك الذين سكنهم همّ المجتمع وأرّقتهم شجونه، فانبروا يُعالجون قضاياه، ووضع الكتاب الذي نعرض له ليأخذ بأيدي الشباب ومن وقع من العامة والخاصة في العشق، وهوت قدمه في دروب الهوى ليكون لهم - أي الكتاب - طوق نجاة يعلّمهم آداب المحبّة وطرقها الحميدة ومسالكها اللطيفة.

الباحثة بسمة الدجاني

في بداية كتابه يذكر المؤلف الأسباب المُوجبة التي دفعته لتأليف كتابه ومنها «أن المحبّة غذاء الأرواح، والعشق المُباح دليل الفلاح، وقد شُغف به كل ذي طبع سليم وعقل مستقيم، وأصبح غالب الناس في بحار العشق خائضين، وعن سفينة النجاة ضالين، ولسفينة الغرق مهتدين.. لذلك أحببت أن أضع في هذا المقام مُؤلَفاً لطيفاً، ومُختصراً شريفاً وظريفاً، مُتكلّماً فيه على الحب وحقيقته، والعشق ومرارته، وشروط المحبّة والغرام، والوجد والهيام، وماذا يجب على العاشق والمعشوق من العفاف والكتمان، ومن الحذر من إرسال النظر الموجب لتلك الأحزان والأشجان، مُبالغاً في اختصاره، وجمع مفرقاته وطيّ انتشاره.

مِن أبواب «مُنيةُ المُحِبّين وبُغيةُ العاشِقين»:

- الباب الأوّل في إثبات حقيقة المحبة وبيان شرفها.

- الباب الثاني في كلام الخائضين في حقيقة المحبة.

- الباب الثالث في حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه وفي الفرق بينه وبين المحبة والخلة، وفي أسمائه.

- الباب الرابع في كلام الخائضين بمدح العشق وذمه.

- الباب الخامس في ذم الهوى وفي ذكر القلب ومدح العقل.

- الباب السادس في علامات المُحب والعاشق وماذا يصبو لهما عند غلبة الوجد.

وهناك أبواب أخرى أطرفها باب عنوانه: في الحذر من إطلاق النظر، وما قيل من العتاب بين القلب والبصر..

حقيقة المحبّة عند المؤلف ثابتة بالكتاب والسنّة والإجماع، وهو يؤيد ذلك بما يُورده في حجج وأسباب. وفي كلام الخائضين في حقيقة المحبة يقول: إن المحبة والحب بمعنى واحد اسم لصفاء الحال بين المحبين مُشتق من قولهم حباب الأسنان أي بياضه وصفاؤه. وقيل المحبة اسم لغليان ما في القلب من الأحزان والهيمان والاهتياج إلى لقاء المحبوب، مُشتق من قولهم حب القدر لرغوتها حين غليانها. وقيل المحبة اسم للزوم ذكر الحبيب في القلب من قولهم أحب البعير إذا برك. قال تعالى: «إني أحببتُ حبّ الخير». قال أبو عبيدة: معناه إني لزمت.

وقيل المحبة مُوافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وقيل هي الميل الدائم بالقلب الهائم. وقيل: نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب. وقيل: المحبة نار حطبها أكباد المحبين.

وقد وضعوا لمعنى الحب حرفين لطيفين مُناسبين للمُسمّى غاية المناسبة: الحاء التي هي من أقصى الحلق، والباء الشفوية التي هي من نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه.
وأعطوا الحُبَّ وهو التعلق القلبي حركة الضمّ التي هي أشدّ الحركات وأقواها مُطابقة لشدة حركة مسمّاه وقوتها، وأعطوا الحِبَّ وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها بالنسبة للضمة، وذلك لخفة المحبوب وذكره على قلوب المحبين وألسنتهم..

بعض الفلاسفة يقولون: لم أَرَ حقاً أشبه بباطل ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزلُه جَدّ وجَدُّه هزل، وأوله لعب وآخره عطب.

وأنشدوا:

سَماعاً يا عِبادَ اللَّهِ مِنّي

وَكُفّوا عَن مُلاحَظَةِ المَلاحِ

فَإِنَّ الحُبَّ آخِرُهُ المَنايا

وَأَوَّلُهُ يُهَيّجُ بِالمِزاحِ

وقيل: أول العشق سهل المرام وآخره هو الحِمام، ابتداؤه ممزوج بالراح، وانتهاؤه خروج الأرواح. أوله نطق بالحجج، وآخره غرق في اللجج..

وقال الأصمعي: لقد أكثر الناس من الكلام في العشق فما سمعت أجمل ولا أوجز من قول بعض النساء الأعراب وقد سئلت عن العشق فقالت: ذل وجنون. وسئل أعرابي عن العشق فقال: هو أغمض مسلكاً في القلب من الروح في الجسم، بَطُنَ وظهر ولَطُف وكَثُف فامتنع عن وصفه اللسان وعمي عنه البيان، فهو بين السحر والجنون لطيف المسلك والكمون.

وأما مراتب الحب فقال بعض العارفين بمراتبه إن أول ما يتجدّد للعاشق الاستحسان، ثم تحدث إرادةُ القرب منه، ثم تحدث المودة وهي أن يَوَدَ أن لو ملكه، ثم تقوى المودة فتصير محبّة، ثم تقوى فتصير خلّة، ثم تقوى فتصير هوى فتهوي بصاحبه في محاسن المحبوب من غير تمالك، ثم يصير عشقا، ثم تتيّماً، والتتيّم حالة يصير بها العاشق مملوكاً للمعشوق لا يوجد في قلبه سواه، ثم يزيد التتيّم فيصير وَلَهاً، والوله هو الخروج عند حدّ الترتيب والتعطّل عن أحوال التمييز!

ويذكر المؤلف من أسماء العشق: التتيّم والهيمان والهيوم والشغف والوجد والكلف والأسف والتلهف والدنف والجوى والصبوة والصبابة والكرب والكآبة والشجو والبلبال والتباريح والغمرات والغرام والهيام والشجى والشجن والجنون والخبل واللاعج والحزن والكمد والنصب والحرق والسهد والأرق والرقة والجزع والحنين والتحرق والأنين والاشتكاء والتجلّد واللوعة والتفجّع إلى غير ذلك من الأسماء..

ويورد عن الإمام ابن حزم الأندلسي أنه قال في كتابه «طوق الحمامة» فضائل الحب نثراً، يوردها شعراً، ولكنه يذم الهوى في باب لاحق، ولعله كان يميل إلى ذمه في حقيقة الأمر، فمن ذلك قوله: اعلم أن الهوى هو ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خُلق في الإنسان لضرورة بقائه، فلولا ميله للمأكل ما أكل، وللمشارب ما شرب، وكذا كل ما يشتهيه. فالهوى مُستجلب له ما يفيد، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يُذَمّ المُفرط في ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار. فقد يكون الهوى في العلم ليخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمره العلم به، وقد يكون في الزهد فيخرج بصاحبه إلى الرياء.

وقال آخر: وإنما سُمّي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه فيسري به في منون ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون.

وقال بعض الحكماء: إن الهوى ملك عسوف وسلطان ظالم دانت له القلب وانقادت له النفوس.

وقال بعضهم: «لمّا خلق الله الخلق لم يكن فيهم حركة حتى ركب فيهم الشهوة وهي تمام الهوى، والهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل».

وعند آخرين أول الهوى هون وآخره هول والهوى طاغية، فمن ملكه أهلكه، والهوى كالنار سهل إيقادها عُسر إخمادها وليس الأسير من أوثقوه العدا، وإنما من أوثقه الهوى قهرا. وأما القلب الذي هو محل الهوى والهدى فمُشتق من القلب لفرط تقلّبه، كما في الحديث الآتي.. قال في الصحاح: «القلب والفؤاد مترادفان».

ويقول المؤلف في باب علامات المُحب والعاشق وماذا يصير لهما عند غلبة الوجد ، وماذا يترتب عليه:

للمحب والعاشق علامات يُعرف بها المحبون، وحالات يتميز بها العاشقون. فمن العلامات: اضطراب أعضاء الإنسان المُحب العاشق عند نظر محبوبه ومعشوقه، ورميه بطرفه نحو الأرض، ويعتريه تغيّر واحمرار واصفرار، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره. وأنشدوا:

علامة من كان الهوى في فؤاده

إذا ما رأى المحبوب يوماً تغيّرا

ويصفرُ منه الوجه بعد احمراره

وإن طلبوا منه الجواب تحيّرا

وأنشدوا:

يصفر وجهي إذا تأمله

طرفي ويحمر وجهه خجلا

حتى كأن الذي بوجنته

من ذم قلبي إليه قد نقلا

ومنها أن يضطرب المُحب عند رؤية من يُشبه محبوبه أو عند سماع اسمه وأنشدوا لقيس بن الملوح:

وداع دعا إذ نحن بالخيفِ من مِنى

فهيّج أشواق الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما

أطار بليلى طائراً كان في صدري

ومنها ما يستدعي سماع اسم محبوبه ويستلذ الحديث في أخباره وأشعاره ويحب أهل محبوبه وقرابته وغلمانه وجيرانه ومن ساكنه.

وأنشدوا:

ألا أيها الوادي الذي فاح طيبه

عسى لك عهد من سعاد قريب

فحُيّيت من واد بكل تحية

لأنك من أجل الحبيب حبيب

و هناك حب كل من يشبه محبوبه، ولو في الهيئة واللباس، وأنشدوا في المعنى:

حببت لحبها السودان حتى

أحبُّ لحبها سود الكلاب

ومنها تقبيل الجدار وآثار المحبوب وأنشدوا:

أمرُّ على الديار ديار ليلى

أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

ومنها بذل النفس والتكرّم بها دون من يحبه ويهواه، وانتحال أعضائه في حبه وهواه، ولصوق القلب في داخل حشاه، وذبوله حتى لا يستطيع أن يُجيب من ناداه . وأنشدوا في المعنى:

ولمّا اِدّعيتُ الحبّ قالتْ كَذَبتَني

فما لي أرَى الأعضاءَ منكَ كَواسيا

فمَا الحبُّ حتى يلصق الجِلدَ بالحَشا

وتذبُلَ حتّى لا تُجيبَ المُناديا

وهناك باب من أطراف أبواب كتاب المؤلف مرعي بن يوسف بن يحيى بن مرعي الحنبلي عنوانه: «في حقيقة الشوق وهل يزول بالوصال أو يزيد؟، وهل يصح كتمان المحبة؟ وهل يتصوّر عند كتمان المحبة هجر؟ وهل إعراض الحبيب عن عداوة؟»

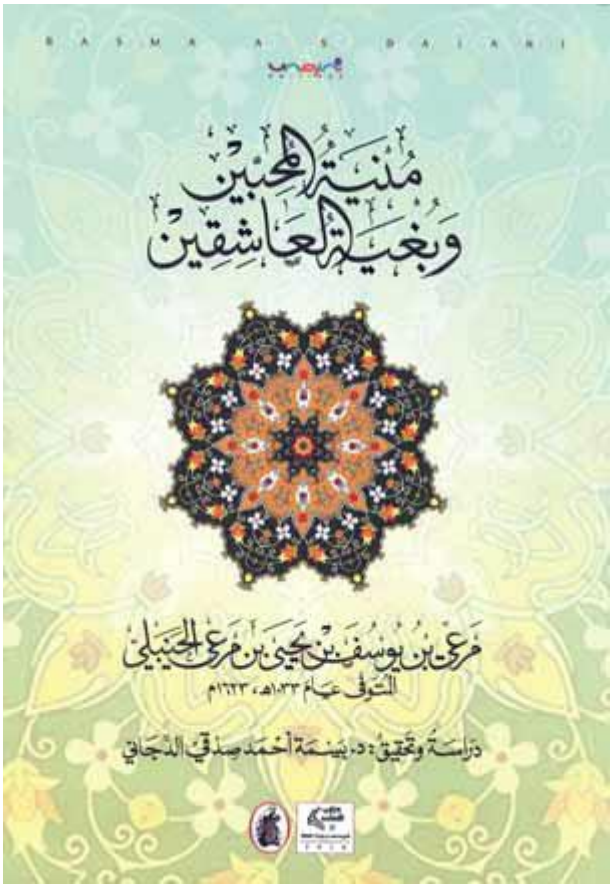

ويُعرّف المؤلف الشوق بأنه، سفر القلب إلى المحبوب، وقيل هو هفوف القلب إلى غائب عنه محبوبه. والتحقيق الذي عليه أهل التحقيق من أهل المحبة أن هناك شوقاً واشتياقاً، وقلنا: فالشوق يسكن باللقاء والمواصلة، وكذلك أبو علي الدقاق لما سئل ما الفرق بين الشوق والاشتياق؟ قال الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول

بالرؤية بل يزيد ويتضاعف، وأما القلق فهو سطوات الشوق على القلوب بالهفوف إلى المحبوب بحيث يبقى المُحب في حيرة لا يدري أطال الليل أم قصر النهار!.

وأما كتمان المحبة فاختُلف فيه فقيل يصح كتمانها وقيل لا يصح والكتمان عند القائلين به هو أن لا ينطق المُحب باسم محبوبه لأسباب: إما لخوف الوشاة، أو لاحترام لائق بذكر مثله.

وقال آخر لا يصح كتمان المحبّة أصلاً، فإن سلطان المحبّة أقوى من كل سلطان كما قال الخليفة هارون الرشيد:

ملك الثلاث الآنسات عناني

وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلّها

وأطيعهنّ وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى

وبه قوين أعزّ من سلطاني

وذهب أهل المحبة الكاملة إلى أنه لا يصح عند تمام المحبة هجر، ولا يتصوّر لأن الصورة الروحانية المعنوية التي حكمها المُحب في نفسه من مشاهدة محبوبه ثابته مقرّرة عنده وليس لها جود إلا فيه. قال الشبلي: قلت للحسين بن منصور: أيحسن الصبر بالمحب عن محبوبه؟، فقال: يستحيل صبر الشيء عن نفسه، وإذا صدقت المحبَّة تمازجت الكلية فاستحال الفراق.

ومن غرائب ما يضمه الكتاب: «غير أن بعضهم إذا أقبل عليه محبوبه طلب المُحب البعد عنه لأنه ألطف منه في عينه للمُناسبة لأن الحب روحاني ومعنوي، ولان المُحب الكامل يشتغل بحب محبوبه عن محبوبه عند النظر إليه إذا تمّت المحبّة.

ومنهم من يشتاق إلى محبوبه فإذا بدا مُقبلاً أطرق منه، وصد عنه حياءً وإجلالاً ومهابة وتعظيماً، وصيانة له من أن يراه مثله.

كما قيل لبعضهم: أتريد أن ترى محبوبك؟ فقال: لا. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: أنزّه ذلك الجمال عن نظر مثلي!.

ولا يقل باب «في إرشاد العاشق السقيم إلى الطريق المستقيم» طرافة عن الباب السابق، وفيه أن الواجب على العاشق كتمان عشقه، كما أن الواجب على العاشق المُبتلى بما هو عليه أن يتدارك أمره بالبُعد عن معشوقه والسعي في خلاص نفسه قبل أن يتمكّن العشق في قلبه فيعز الداء ويتعذّر الدواء.

وينقل الكتاب عن أبقراط الحكيم أنه قال: «أنا رأس الحكماء، وقد قسّمت الأدوية، وامتحنت العقاقير حتى أقمتها بأداء العلل، ومع ذلك فقد عالجت كل شيء وغلبته ووفقت فيه حتى أحكمته، وعجزت في علاج الحب بعد تمكّنه وما أدركته لخفائه عن الحس لأنه شيء دفين في القلب، فمن وقع في ذلك فالواجب عليه العفاف والكتمان قبل أن يبدو بالذنب والخسران».

https://www.raya.com/Home/GetPage/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/e9ce8ba7-9943-4b0b-b206-42a874ea24b8